ROWAQ MAYSALOON
رواق ميسلون
Political and Cultural Studies
دراسات سياسية وثقافية
مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الثورة السوريّة؛ هُزمت أم ما زالت مستمرّة؟

في هذا العدد

■ حوار العدد:
- بينت شيلر
- سميح شقير

■ راتب شعبو:
النجاح والإخفاق في الثورة

■ محمد عمر كرداس:
الثورة السورية: قراءة في أسباب الهزيمة وما بعدها

■ شخصية العدد:
إلياس مرقص

العدد التاسع نيسان/ أبريل 2023

رواق ميسلون
ROWAQ MAYSALOON

العدد التاسع
نيسان/ أبريل 2023

التحرير

رئيس التحرير
Editor in Chief
حازم نهار
Hazem Nahar
مدير التحرير
Editorial Manager
نور حريري
Nour Hariri
سكرتير التحرير
Editorial Secretary
وسيم حسان
Wasim Hassan
المحرر الثقافي
Cultural Editor
راتب شعبو
Rateb Shabo
هيئة التحرير
Editorial Board
جَوى العامري
Jawa Alamiri
خلود الزغيّر
Kholoud El-Zughayyar
ريمون المعلولي
Rimon Almaloly
غسان مرتضى
Ghassan Mortada

الهيئة الاستشارية

أيوب أبو دية
Ayoub Abudeah
(الأردن)
Jordan
جاد الكريم الجباعي
Gadalkareem Aljebaei
(سورية)
Syria
حسن نافعة
Hasan Nafaa
(مصر)
Egypt
خالد الدخيل
Khaled Eldakhil
(السعودية)
Saudi Arabia
خطار أبو دياب
Khatar Abu Diab
(لبنان)
Syria
دلال البزري
Dalal Al Bizri
(لبنان)
Lebanon
سعيد ناشيد
Saeed Nashed
(المغرب)
Morocco
سمير التقي
Samir Altaki
(سورية)
Syria
عارف دليلة
Aref Dalila
(سورية)
Syria
عبد الحسين شعبان
Abd Alhusain Shaban
(العراق)
Iraq
عبد الوهاب بدرخان
Abd Alwahab Badrkhan
(لبنان)
Lebanon
كارستين فيلاند
Carsten Wieland
(ألمانيا)
German
كمال عبد اللطيف
Kamal Abdelateef
(المغرب)
Morocco

التدقيق اللغوي
Proofreading
شيري أيهم
Shery Ayham
التصميم والإخراج
Design and Layout
شيرين فوزي
Sherein Fawzy
المشرف التقني
Technical Supervisor
طارق رضوان
Tarek Redowan

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

مؤسسة ثقافية وبحثية مستقلة، غير ربحية، تُعنى بإنتاج ونشر الدراسات والبحوث والكتب التي تتناول القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وتولي اهتمامًا رئيسًا بالترجمة بين اللغات الأوروبية، الإنكليزية والفرنسية والألمانية، واللغة العربية. وتهدف إلى الإسهام في التنمية الثقافية والتفكير النقدي والاعتناء الجاد بالبحث العلمي والابتكار، وإلى تعميم قيم الحوار والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. وتسعى لتبادل الثقافة والمعرفة والخبرات، وإقامة شراكات وعلاقات تعاون وثيقة مع المؤسسات والمعاهد والمراكز الثقافية والعلمية، العربية والأوروبية. وتؤمن بأهمية تعليم وتدريب الشباب، والأخذ بيدهم، والارتقاء بهم ومعهم في سلّم الإبداع والإنتاج، وتعمل لتكون خططها التدريبية متوافقة مع المعايير العالمية، بالتعاون مع مجموعة من الخبراء العرب والأوروبيين.

رواق ميسلون

مجلة «رواق ميسلون» للدراسات الفكرية والسياسية؛ مجلة بحثية علمية، فصلية، تصدر كل ثلاثة أشهر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر، ولها رقم دولي معياري (ISSN: 2757-8909). وتُعنى بنشر الدراسات ومراجعات الكتب، ويتضمن كل عدد منها ملفًا رئيسًا ومجموعة من الأبواب الثابتة. وللمجلة هيئة تحرير متخصِّصة، وهيئة استشارية تشرف عليها، وتستند المجلة إلى أخلاقيات البحث العلمي، وقواعد النشر المعتمدة عالميًا، وإلى نواظم واضحة في العلاقة مع الباحثين، وإلى لائحة داخلية تنظّم عملية التقويم.

تطمح المجلة إلى طرق أبواب فكرية سياسية جديدة، عبر إطلاق عملية فكرية بحثية معمّقة أساسها إعمال النقد والمراجعة وإثارة الأسئلة، وتفكيك القضايا، وبناء قضايا أخرى جديدة، وتولي التفكير النقدي أهمية كبرى بوصفه أداة فاعلة لإعادة النظر في الأيديولوجيات والاتجاهات الفكرية المختلفة السائدة.

اللوحات في هذا العدد للفنان التشكيلي
السوري سامر إسماعيل

المراسلات باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني:
rowaq@maysaloon.fr

باريس، فرنسا: 0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

رواق ميسلون

ROWAQ MAYSALOON

Political and Cultural Studies

دراسات سياسية وثقافية

مجلة فصليّة تصدر عن مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الافتتاحية

الهزيمة السوريّة، وما بعدها

حازم نهار

لوحة للفنان سامر إسماعيل (امرأة محطمة) 2019

الهزيمة السوريّة، وما بعدها

حازم نهار

كاتب وباحث سوري في الشؤون السياسية والثقافية، له إسهامات عديدة في الصحف والمجلات ومراكز الدراسات العربية، باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، نشر عددًا من الكتب السياسية والثقافية، منها «مسارات السلطة والمعارضة في سورية» الذي صدر عن مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، و«سعد الله ونوس في المسرح العربي»، وله عدة ترجمات، منها: سورية: الاقتراع أم الرصاص لكاريستين ويلاند، سورية: ثورة من فوق لرايموند هينبوش، بناء سنغافورة لمايكل دي بار وإزلاتكو إسكربس، تشكيل الدولة الشمولية في سورية البعث لرايموند هينبوش، سورية الأخرى: صناعة الفن المعارض لميريام كوك، لعبة الانتظار لبينت شيلر، أسّس وأدار مؤسَّسات بحثية وثقافية ومدنية عديدة.

انطلقت الثورة السوريّة بصورةٍ عفويّةٍ، في آذار/ مارس 2011، لكن بالتجاوب مع سياق عربيّ دافع باتجاه التحركات الشعبيّة، فلولا ما حدث في تونس ومصر ما كان، على الأرجح، يُتوقَّع أن تكون هناك تظاهرات على الساحة السوريّة، على الرغم من أنَّ كلَّ الأسباب الموضوعيّة للثورة كانت ناضجةً منذ زمنٍ.

كانت الثورة السوريّة في وجه النظام السوريّ الدكتاتوريّ عملًا أسطوريًّا مدهشًا ومفاجئًا، للسوريين أنفسهم بالدرجة الأولى قبل أيِّ أحدٍ آخر، فما كان متوقَّعًا لدى أكثرهم تفاؤلًا أنَّهم قادرون على تحدِّيه، ومن ثَمَّ زلزلة كيانه. أحدثت الثورة تغييراتٍ جسيمةً في الواقع والعقل، ولن تظهر آثارها كلُّها إلَّا بعد زمنٍ لا نستطيع تقديره الآن، فقد كانت، في الحدِّ الأدنى، أداةً لكنس كثيرٍ من الشعارات والأوهام والقوى والشخصيات والأيديولوجيات التي أكلت رؤوس أهل المنطقة. مع ذلك، كان مسار الثورة طوال ما يزيد على اثني عشر عامًا خلت مسارًا انحداريًّا وصولًا إلى اللحظة الراهنة بما يعتمل فيها من إحباطٍ وتخبّطٍ، إلى جانب كونه مسارًا قاسيًا ومؤلمًا ومكلفًا بطريقة قلَّ نظيرها عبر التاريخ.

إن النِّقاش حول سؤال ما إذا كانت الثورة السوريّة قد هُزمت أم لا، تحكمه داخل الأوساط السوريّة المعارضة، في أغلب الأحيان، أنماط تفكيرٍ غير عقلانيّةٍ ورؤى انفعاليّة متناقضة وتصورات متخمة بالتخبّط والضياع، وهذه كلُّها من أعراض الهزائم الشديدة، فضلًا عن أنَّها كانت أصلًا من أسبابها على المستوى الذاتيّ.

الهزيمة في الوعي الاستبداديّ والوعي الديمقراطيّ

هناك فروقٌ كبيرةٌ وعديدةٌ، وفي مستوياتٍ مختلفةٍ، بين الاستبداد والديمقراطيّة، وفي هذا الشأن كُتبت دراساتٌ ومؤلّفاتٌ عديدةٌ تناولت هذه الفروق من زوايا متعدِّدة. لكن، أعتقد أنَّ هناك فرقًا حيويًّا وذا دلالة خاصة، من المفيد تسليط بعض الضوء عليه، يتمثل بأنَّ الديمقراطيّة تسمح بنموِّ مناخ يتقبَّل الاعتراف بالهزيمة أكانت على مستوى السلطة أو الدولة أو المجتمع أو الفرد، وهذه فضيلةٌ كبرى، فيما الاستبداد لا يفعل ذلك، فهذا الأخير لا مكان فيه إلَّا للانتصارات المطلقة.

ليس ثمَّة هزيمة في معاجم الأنظمة المستبدّة التي اعتادت على تقديم كلِّ هزيمةٍ تتعرَّض لها، داخليًّا أو خارجيًّا، على أنَّها انتصارٌ استثنائيٌّ أو إلهيٌّ، والأمثلة أكثر من أن تُحصى في هذا السياق؛ يكفينا أن نتذكَّر على سبيل الماثل انتصارات نظام صدام حسين في «أمّ المعارك»، وانتصارات الأنظمة العربيّة في حزيران/ يونيو 1967، وانتصارات نظام الأسد ضد «المؤامرة الكونية» و«الإرهاب»، ولا يهمُّ إن كان كلٌّ من العراق وسورية قد تحوَّل إلى حطامٍ وأطلال في هذه الانتصارات. فمع الخراب السوريّ الشامل الذي تشهدهُ سورية اليوم ما يزال النظام السوريّ رافعًا لواء «الانتصارات».

نحن أمام طرفٍ، النظام السوريّ، لا يمكن أن يقرّ بالهزيمة أو يعود خطوةً إلى الوراء أمام أيِّ حراكٍ شعبيٍّ، فهو يولي اهتمامًا كبيرًا بـ «هيبته» التي يرى أنَّها تتأتّى من صلابته التي لا تتجاوب مطلقًا مع أيِّ ضغطٍ داخليٍّ، وهذه «الهيبة»، بالنسبة إليه، أهمُّ وأعلى رتبةً من أيِّ مصلحةٍ وطنيّةٍ أو عامّةٍ. ولذلك، هناك خطر حقيقيّ في الدخول في معركةٍ مع طرفٍ لا تكون الهزيمة لديه احتمالًا ممكنًا، لأنَّه سيكون مستعدًا، في حال حُشر في الزاوية، لحرق الأخضر واليابس، خصوصًا عندما تكون

> هناك خطر حقيقيّ في الدخول في معركةٍ مع طرفٍ لا تكون الهزيمة لديه احتمالًا ممكنًا، لأنَّه سيكون مستعدًا، في حال حُشر في الزاوية، لحرق الأخضر واليابس

> أصبحت الثورة أقنومًا مقدسًا مثل النظام السوريّ، لا تنحلُّ ولا تُهزم ولا تتغيَّر، حالة فوق الواقع وخارج التاريخ

السلطة، كلُّ السلطة، مركَّزةً بين يديه.

تنتقل عدوى إنكار الهزيمة في الأنظمة السلطويّة الشموليّة إلى معارضيها بالضرورة، وإلى البشر العاديّين أيضًا؛ فحتى البشر العاديُّون في النظام الشموليّ لا يقبلون الاعتراف بالهزيمة، لا أحد يتراجع خطوة إلى الوراء، ربما لأنَّ هذه الأنظمة لا تسمح، على ما يبدو، بنموِّ كائناتٍ إنسانيّةٍ طبيعيّةٍ، كائناتٍ مجبولةٍ من قوة وضعف، من انتصار وهزيمة، عنفوان وهشاشة، في آنٍ معًا. إنَّها لا تسمح، غالبًا، إلَّا بنموِّ كائناتٍ مشوّهةٍ على المستوى الإنساني، والسياسيّ أيضًا.

في سورية، «المعارضة» أو «المعارضات» الغارقة حتى أذنيها في الهزيمة لم تُهزم، وما زالت مستمرَّة، وجماعة «الثورة مستمرّة» ما زالت مستمرَّة أيضًا لكن من دون الثورة؛ الثورة وُضعت على الرَّف أو صارت وراءنا. كلُّ هذا التمزق في جسد الثورة والمعارضة، وفي بنيان الدولة ونسيج المجتمع، لكنَّ الثورة مستمرَّة! أصبحت الثورة أقنومًا مقدسًا مثل النظام السوريّ، لا تنحلُّ ولا تُهزم ولا تتغيَّر، حالة فوق الواقع وخارج التاريخ. يكتسب الكلام والمفردات في الظواهر الاستبداديّة، السلطويّة والمعارضة، أهميةً أكبر وأهمّ من الواقع. يكفي أن نكرِّر أنَّ الثورة مستمرّةٌ لنظنَّ أو نقنع أنَّها مستمرّة فعلًا، أما الأسئلة الجوهريّة: أين هي مستمرّة؟ وكيف وبمن وإلى أين؟ فهي مكروهةٌ أو مؤجّلةٌ أو لا قيمة لها.

في الاستبداد يحكمنا، نظامًا ومعارضة/ ات، قانونُ الكلِّ أو لا شيء. لنا الصدر دون العالمين أو القبر، الموقع الأوَّل أو الأخير، مع أنَّ الدرجات بينهما لانهائيّة. في الديمقراطيّة نتعلم التسويات والحلول الوسط والتدرّج اللانهائيّ والألوان المتعددة. المعنى العميق للسياسة هو الديمقراطيّة، لكن السياسة ممنوعةٌ في سورية، كلاهما النظام والمعارضة لا يمارسان السياسة؛ عندما يرتكز خطاب كلٍّ منهما على سحق الآخر، وعندما يكون لديهما معنى الانتصار نفسه، وعندما تكون فكرة الهزيمة أو الاستسلام أو التراجع غير واردةٍ أبدًا في معاجم أيٍّ منهما، فهذا يعني حكمًا أنَّ السياسة لا وجود لها. في السياسة يقولون إنَّ من لا يتقن فنَّ التراجع لا يتقن فنَّ التقدّم إلى الأمام. ولذلك، يأخذ الصراع بين السلطة والمعارضة طابع معركة كسر عظم مدمِّرةٍ لا يقتصر تأثيرها على السلطة والمعارضة وحسب، بل تطال الدولةً والمجتمع أيضًا. نحن هنا لا نساوي بين النظام والمعارضة/ ات على مستوى الجرائم المرتكبة خلال السنوات الماضية، فهذه لا أحد يستطيع أن ينافس

النظام فيها أبدًا، إن من ناحية الكمِّ أو من ناحية النوع، لكنَّنا نقارب بينهما من حيث منطق التفكير؛ فالديمقراطيّة بوصفها نمط حياة وثقافة، وليست صندوق اقتراع فحسب، غائبةٌ عند الطرفين.

ليس نادرًا في الحياة الديمقراطيّة أن تتراجع حكومةٌ ما عن قرارٍ قوبل باعتراضات مواطنيها، فيما لا تقبل أيُّ سلطةٍ في الأنظمة الألوهيّة التراجع عن أيِّ قرارٍ اتَّخذته أو سلوكٍ اتَّبعته. أكثر مسألة تُفرح نظام الاستبداد، ومواليه، أنَّه لم يتنازل عن شيءٍ أو يتراجع خطوةً. هذا سلوك عنفيٌّ عدوانيٌّ. يؤمن بوتين مثلًا بأهمية وجود طاولة بعشرة أمتار تفصله عن المسؤوليّن الروس وغيرهم، لخلق الهيبة والزعامة. ويراهن مثلًا على احتجاجات وتظاهرات الشعوب الأوروبيّة ضدّ حكوماتها، لكنَّه لا يتوقَّع أن تحدث احتجاجات وتظاهرات مماثلة في روسيا، فهو يعترف ضمنيًا أنَّ هذه الأفعال يمكن أن تؤدّي إلى نتيجةٍ ما في الدول الأوروبيّة، مثل إجبار الحكومات على تغيير قراراتها أو تغيير الحكومات ذاتها.

معيار النصر والهزيمة

في سياق تقويم نتائج الصراعات الحاسمة، غالبًا ما تأخذ مسألة النصر والهزيمة موقعًا مركزيًا في نقاش البشر، وهم يختلفون حولها، ويقاربونها بطرائق متنوعة؛ فهناك من يعتمد على إحصاء خسائر الخصم أو العدو جاعلًا منها دليلًا حاسمًا على انتصاره، وهناك من يعتمد على النتائج السياسية التي حصل عليها معيارًا للدلالة على نصره أو هزيمته بصرف النظر عن خسائره البشريّة والماديّة، وهناك من يعتمد على المقارنة بين إمكاناته الضعيفة وإمكانات الخصم أو العدوِّ الكبيرة قبل بدء الصراع للتأكيد على أنَّ الهزيمة كانت من نصيبه سلفًا أو لتضخيم النصر الذي أحرزه ضدَّ طرفٍ قويٍّ وقادرٍ، وهكذا... إلخ. أما بالنسبة إلى حالة الصراع السوريّ، فإنَّ معادلات النصر والهزيمة، وحسابات الربح والخسارة، كانت، وستكون، أعقد من هذه المقاربات المعروفة.

في الحالة السوريّة، إذا أردنا أن نضع جملةً من المعايير التي تحدِّد معنى الهزيمة والانتصار، فإنَّنا نعتقد أنَّ وجود الدولة، ووحدة الشعب، والآمال أو الآفاق المفتوحة، هي العناصر الرئيسة التي يمكن الركون إليها في الحدِّ الأدنى. ويظهر من دون شكٍّ أنَّنا أخفقنا، نظامًا ومعارضةً وثورةً وشعبًا، في هذا

> إذا أردنا أن نضع جملةً من المعايير التي تحدِّد معنى الهزيمة والانتصار، فإنَّنا نعتقد أنَّ وجود الدولة، ووحدة الشعب، والآمال أو الآفاق المفتوحة، هي العناصر الرئيسة التي يمكن الركون إليها في الحدِّ الأدنى

السياق، حيث تلاشى ما تبقى من الدولة، الدولة التي كانت أصلًا ضامرةً خلال حكم النظام 1970–2011، فيما الشعب تمزَّق وتشظَّى، بعد أن كان الاستبداد هو العنصر الوحيد الموحِّد له، والآفاق تكاد تبدو مسدودةً على المستويات كافة، السياسيّة والاقتصاديّة.

> إذا نظرنا إلى الوقائع فعلًا سنرى أنَّ أهداف كلٍّ من النظام والثورة لم تتحقَّق قطُّ، ومن ثمّ فإنَّ سائر الادِّعاءات بكسب المعركة لا قيمة لها

استطاع النظام السوريّ منع الثورة من تحقيق أهدافها الأولى المعلنة، واستطاعت الثورة منع النظام من إعادة الأمور في سورية إلى ما قبل 2011، لكن الحصيلة كانت تدميريّة بالمعنى الوطنيّ العامّ. وبالطبع، يتحمَّل النظام السوريُّ القدر الأكبر من المسؤوليّة عن الأوضاع التي آلت إليها أحوال الدولة والشعب من جهة، وعن صوغه لمعادلة النصر والهزيمة العدمية التي سيطرت على الوعي العامّ من جهة ثانية.

رفض النظام السوريّ انتصار السوريّين عليه بالطبع، وواجههم بطريقةٍ لا تترك لهم مخرجًا سوى الاستمرار في المواجهة، لم يترك أمامهم فرصة لـ «استسلام» من نوع ما، وكأنَّه كان يرفض استسلامهم أيضًا. كان يريد أن يرى الذين انتفضوا ضدّه قتلًى أو لاجئين خارج البلد أو معتقلين فحسب، يريد أن يحاسبهم على جرأتهم، وأن يدفن أيَّ تفكيرٍ مستقبليٍّ بالتمرّد عليه. لم يُرِد النظام هزيمة الثورة وحسب، بل أراد دعسها وسحقها كليًّا أيضًا.

جرَّ النظام السوريّين الثائرين إلى صراعٍ عدميٍّ خالٍ من التفكير في التكاليف، وفي انعكاساته على الدولة والمجتمع والمستقبل. فقد اقتنعوا، وهم مرغمون، بأنَّه لا بدَّ من إزالة النظام كليًّا وإلَّا فإنَّه سيسحقهم سحقًا تامًّا، ومن ثمّ سيمرُّ زمنٌ طويلٌ إلى أن يتمكَّنوا من الثورة ضدَّه مرةً أخرى. هذا النوع من الصراع لا علاقة له بالصراع السياسيِّ العاديِّ المعروف في أعتى الأنظمة الاستبداديَّة، إنَّه يتوافق مع نوع خاصٍّ من الصراع؛ «الصراع على الوجود» أو «الصراع من أجل البقاء» الذي تصبح فيه كلُّ الأدوات والآليات والسلوكات مباحةً، من دون أيِّ حدودٍ ولا أيِّ اكتراثٍ بالجوانب الإنسانيّة. وهذا الصراع سيغيِّر بالضرورة من دوافع الثورة وأهدافها وأدواتها ونهجها، وسيأتي ببشرٍ من نوعٍ خاصٍّ إلى الواجهة، لهم علاقة بالقتال والأيديولوجيات المقاتلة على حساب السياسة وأدواتها.

إذا نظرنا إلى الوقائع فعلًا سنرى أنَّ أهداف كلٍّ من النظام والثورة لم تتحقَّق قطُّ، ومن ثمّ فإنَّ سائر الادِّعاءات بكسب المعركة لا قيمة لها. في الصراعات

والمعارك، عادةً ما يعترف المهزومون بهزيمتهم، ويُعلن المنتصرون حصائل انتصارهم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. في سورية لا الطرف المهزوم اعترف بهزيمته ولا المنتصر استطاع استثمار نصره سياسيًّا واقتصاديًّا. لم يحقّق النظام السوريّ في حربه انتصارًا كاسحًا على السوريّين كما كان يأمل ويتوقّع، لكنَّ هذا لا يعني بالطبع أنَّ الثورة انتصرت.

> **الهزيمة اليوم سورية المولد والمنشأ والامتداد والتأثير والشمول، وهذه واحدة من النقاط الرئيسة التي يؤدِّي استبطانها على مستوى الوعي السوريّ العامِّ إلى توليد رؤية وطنيَّة خارج دائرة الاستقطابات السائدة كلِّها، الواقعيَّة والوهميَّة على حدٍّ سواء.**

نعم، هُزمت الثورة ولم ينتصر النظام، وفي الحصيلة كنَّا أمام هزيمة سوريّة كليّة على جميع المستويات. نعم، الهزيمة اليوم سورية المولد والمنشأ والامتداد والتأثير والشمول، وهذه واحدة من النقاط الرئيسة التي يؤدِّي استبطانها على مستوى الوعي السوريّ العامِّ إلى توليد رؤية وطنيَّة خارج دائرة الاستقطابات السائدة كلِّها، الواقعيَّة والوهميَّة على حدٍّ سواء. سورية اليوم أقرب إلى أن تكون جثةً تنتظر الدفن، بلد مهشَّمة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وأمنيًّا وجغرافيًّا وديموغرافيًّا، والنظام الذي يحتفي بالنصر بين الأنقاض مستمرٌّ فحسب لأنَّه الجهة المنظَّمة والمتماسكة والمعترف بها الوحيدة في سورية، لكنَّه منكسرٌ هو الآخر، ولم يبقَ منه سوى ذراعه الأمنيَّة وعلاقاته بروسيا وإيران. لكنَّ الأشد قساوة على السوريّين اليوم هو ضمور الأمل في المستقبل والآفاق شبه المغلقة، فما عاد ممكنًا الإلمام بالوضع السوريِّ اليوم، ولا التنبّؤ بمساراته وتطوراته، وكلُّ المقاربات والتحليلات ناقصةٌ أو عاجزةٌ، وهذا من دلائل الهزيمة السوريَّة الشاملة.

لماذا هُزمت الثورة؟

يمكننا أن نضع أسبابًا عديدة كانت وراء إخفاق الثورة؛ أهمها أنَّ النظام قد تخلَّص، عبر القتل أو الاعتقال أو الدفع إلى الهروب خارج البلاد، من القيادات الشبابيَّة، واستخدم كلَّ أنواع الأسلحة الفتاكة ضدَّ المتظاهرين من دون أيِّ رادع، وفتح أبواب سجونه ليطلق آلاف الجهاديِّين، إضافةً إلى أنَّ انتصار ثورة وطنيَّة ديمقراطيّة في سورية كان سيترك آثاره في النظام الإقليميِّ كلِّه، ما أثار مخاوف دولٍ عدة، وأنَّ العالم لم يكن جادًّا في إزالة النظام لعدم تبلور البديل الملائم الذي لا يترك سورية للمجهول. مع ذلك، فإنَّ هذه الأسباب مجتمعة، وغيرها، لا تنفي أيضًا أنَّ الثورة السوريّة قد سُحقت من داخلها بالدرجة الأولى، وهذا

هـو أهـمُّ مـا ينبغـي لنـا إخضاعـه للنقـاش والحـوار، كونـه المفيـد بالنسـبة إلـى السـوريِّين فـي سـياق المراجعـة وإعـادة البنـاء.

> نحن أمام معارضةٍ/اتٍ لديها حالة لاعقلانيَّة مزمنة في التفكير والأداء السياسيَّين، ولذلك لا يُتوقَّع منها أن تنتج إلَّا الأخطاء، تنهض من حفرةٍ وتقع في أخرى تليها

لا تكمـن المشـكلة فـي بنيـة التشـكيلات المعارضـة، المجلـس الوطنـيّ، الائتـلاف الوطنـيّ، الهيئـة العليـا للمفاوضـات، اللجنـة الدسـتوريّة... إلـخ، وطرائـق توليدهـا وطبيعتهـا وأنمـاط أدائهـا فحسـب، بـل أيضًـا فـي الوعـي السـوريّ العـامّ، ومـن ضمنـه وعـي النخـب السـوريّة، الثقافيّـة والسياسـيّة، الـذي لا يخـرج عمومًـا عمَّـا هـو سـائد فـي هـذه التشـكيلات. وليـس صحيحًـا أن يُختـزل إخفـاق هـذه التشـكيلات، كمـا هـو سـائد، فـي «فسـادٍ» هنـا أو هنـاك، فالمشـكلة أكبـر وأعمـق، وتكمـن فـي عقلهـا السياسـيِّ ووعيهـا ورؤيتهـا وتحليلهـا وخطابهـا وأدائهـا، ولذلـك لا تُحـلُّ المشـكلة باسـتبدال شـخصيات تلـك التشـكيلات بشـخصياتٍ أخـرى «غيـر فاسـدة».

كان البديـل المعـارض المحتمـل بديـلًا مشـوَّهًا عـن النظـام؛ معارضـة أو معارضـات تعاملـت مـع الثـورة بوصفهـا أداةً للانتقـام، لا بوصفهـا أداة تغييـرٍ وبنـاءٍ وارتقـاءٍ، وقدَّمـت فـي مناطـق نفوذهـا نمـاذج اسـتبداديَّة وتابعـة، وسـاهمت فـي نمـوِّ الصـراع المسـلَّح، وتبنَّـت انحرافاتـه المتطرِّفـة، واختزلـت الثـورة إلـى بعـد عسـكريٍّ وحيـد، وأبعـدت النضـال السياسـيَّ والمدنـيَّ. كانـت الكيانـات المحسـوبة علـى الثـورة والمعارضـة: المجلـس الوطنـيُّ، الائتـلاف الوطنـيُّ، هيئـة التفـاوض، الحكومـة المؤقَّتـة، الفصائـل المسـلَّحة، الجيـش الوطنـيُّ، المجالـس المحليَّـة... إلـخ، مرتهنـة ولا تملـك مشـروعًا وطنيًّـا حقيقيًّـا تدافـع عنـه، حيـث كلُّ كيـانٍ أو فصيـل أو تنظيـم يدافـع عـن مصالـح مموليـه، أو خلافتـه أو دولتـه، ويسـابق بعضهـا بعضًـا علـى خدمـة رؤى الـدول الإقليميَّـة ومصالحهـا.

كـرَّر الإسـلاميُّون السـوريُّون أداءهـم نفسـه وممارسـاتهم ذاتهـا التـي اعتمدوهـا فـي أواخـر السـبعينيات وأوائـل الثمانينيـات، وكأنهـم يتبعـون «كتالوجًـا» واحـدًا لا يعرفـون غيـره، ومثلهـم فعـل النظـام السـوريُّ، وكذلـك تيـارات وشـخصيَّات سياسـيَّة سـورية، يسـارية وليبراليـة، التحقـت بالإخـوان بطريقـةٍ أو أخـرى. لـو كانـت جماعـة الإخـوان المسـلمين تفكِّـر فعـلًا فـي نجـاح الثـورة السـوريَّة لأخـذت الصـف العاشـر بـدلًا مـن أن تتصـدَّر المشـهد السياسـيَّ. مـا زالـت الجماعـة تنتقـل مـن هزيمـةٍ إلـى أخـرى، وهـي مسـتمرَّة فـي ترديـد الـكلام نفسـه والحجـج ذاتهـا، وتنتظـر نصرهـا الحتمـيَّ المقبـل.

لا يمكـن النظـر إلـى الأخطـاء السياسـيَّة التـي وقعـت فيهـا المعارضـة أو المعارضـات بوصفهـا أخطـاءً عابـرةً أو بسـيطةً تمكـن معالجتهـا وتصحيحهـا، فنحـن

افتقدت الثورة إلى مركز ناظمٍ ومحرّكٍ وموجّهٍ ومعتمَدٍ وموثوقٍ، داخليًّا وخارجيًّا، فقد غابت القيادة السياسيَّة والرؤية السياسيَّة، وغاب البرنامج السياسيُّ والخطاب السياسيُّ والخطة السياسيَّة والأداء السياسيُّ والتنظيم السياسيّ. وهذا الغياب سببٌ رئيسٌ من أسباب الهزيمة على المستوى الذاتي

أمـام معارضـةٍ/ اتٍ لديهـا حالـة لاعقلانيَّـة مزمنـة فـي التفكيـر والأداء السياسـيَّين، ولذلـك لا يُتوقَّـع منهـا أن تنتـج إلَّا الأخطـاء، تنهـض مـن حفـرةٍ وتقـع فـي أخـرى تليهـا. على مستوى التحليـل السياسـيّ، كان الخطـأ فـي قـراءة طبيعـة النظـام السـوريِّ وقدراتــه وشـبكة علاقاتــه وتوازناتــه وتحالفاتــه، مــن أكبــر الأخطــاء، مــا جعــل المعارضــات تتوقَّــع ســقوطه بسـهولة، وفــي زمــنٍ قصيــر. ومنهــا أيضًــا الخطــأ فــي النظـر إلـى الثـورة بوصفهـا جـاءت لتُنصـف فصيـلاً معيَّنًـا أو لتُظهـر صحّـة رؤيتـه، مـع أنَّ الثـورة كانـت وليـدة حاجـاتٍ سياسـيّةٍ واقتصاديّـةٍ لا علاقـة لهـا بالماضـي وقـواه وثاراتــه وأيديولوجيَّاتــه.

افتقـدت الثـورة إلـى مركـزٍ ناظـمٍ ومحـرِّكٍ وموجِّـهٍ ومعتمَـدٍ وموثـوقٍ، داخليًّـا وخارجيًّـا، فقد غابـت القيـادة السياسـيَّة والرؤيـة السياسـيَّة، وغـاب البرنـامج السياسـيُّ والخطـاب السياسـيُّ والخطـة السياسـيَّة والأداء السياسـيُّ والتنظيـم السياسـيّ. وهـذا الغيـاب سـببٌ رئيـسٌ مـن أسـباب الهزيمـة علـى المسـتوى الذاتـي. بُنيـت تشـكيلات المعارضـة فـي معظمهـا بطريقـةٍ اعتباطيَّـةٍ، فكانـت أقـرب إلـى «اللمَّـة» أو «الشـلَّة» لا التنظيمـات السياسـيَّة، وكانـت الفوضـى سـيدة الموقـف؛ فوضـى الإعـلام والمواقـف السياسـيَّة والعلاقـات الدوليَّـة، وكان عملهـا أقـرب إلـى العفويـة و«الفزعـة» مـن دون بـذل جهـدٍ مركَّـزٍ ومنظَّـم وتراكمـيٍّ. ومـن ثـمَّ ظـلَّ النظـام السـوريُّ العنـوان الوحيـد للشـعب السـوريِّ والدولـة السـوريَّة، وبـاءت جميـع المحـاولات مـن أجـل صناعـة عنـوانٍ آخـر بالإخفـاق.

وُضعـت الثـورة، منـذ البدايـات، فـي مواجهـة السياسـة وفـق فهـم سـطحيٍّ وشـعبويٍّ للثـورة والسياسـة فـي آنٍ معًـا؛ شـارك مثقفـون وسياسـيُّون في تصديـر هـذا الفهـم، وكأنَّ الثـورات لا تحتـاج إلـى السياسـة والتفكيـر السياسـيِّ والعمـل السياسـيِّ، أو كأنَّ الهدف الرئيـس للثـورات ليـس إعـادة بنـاء الحقـل السياسـيِّ والنظـام السياسـيِّ، وليـس لهـذا مـن دلالـة سـوى أنَّ النخـب الثقافيّـة السياسـيّة لا يزيـد وعيهـا علـى الوعـي العـامِّ أو أنَّهـا خانـت عقلهـا وسـارت فـي الطـرق الانتهازيّـة والشـعبويّة، فمارسـت السياسـة بطريقـة السـحرة والمشـعوذين، واسـتبطنت الوهـم، واقتنعـت بـه، ودارت فيـه وأنتجتـه، وصدَّرتـه.

سـاد أيضًـا نمـطٌ مـن التفكيـر «الثـوريّ» المؤمـن بحتميَّة انتصـار الثـورة، اسـتنادًا إلى كونهـا ثـورة مُحِقَّـة، ولـم يكـن هنـاك أيُّ شـكٍّ لـدى القطاع الأوسـع مـن السياسـيِّين في انتصـار الثـورة؛ لـو كانـت «الأحقيَّـات» هـي التـي تحكـم الواقـع والتاريـخ أو تتحكَّـم فيهمـا لكنَّـا بألـف خيـرٍ، فهـذا النمـط مـن الحتميَّـة، فـي ميـدان حركـة التاريخ والبشـر، لا يجـد سـنده أو رصيـده إلَّا فـي الوعـي الخرافـيِّ والحكايـات الشـعبيَّة. لـم يُوضـع إخفـاق الثـورة احتمـالًا واردًا، ومـن لا يخطـر هـذا الاحتمـال فـي ذهنـه ليـس لـه أن يعـدَّ نفسـه مثقفًـا أو سياسـيًّا أو صاحـب تفكيـر إسـتراتيجيٍّ، فوضـع هـذا الاحتمـال فـي الذهـن كان سـيكون مفيـدًا مـن حيـث التفكيـر فـي مصائـر سـورية والشـعب السـوريّ فـي حـال حـدوث الإخفـاق، وفـي اختيـار أنمـاط عمـلٍ لديهـا القابليَّـة للاسـتمرار فـي منـاخ الإخفـاق كـي لا تكـون الهزيمـة شـاملةً وسـاحقةً. كان هنـاك، للأسـف، شـكلٌ مـن أشـكال الترهيـب الفكـريِّ ضـدَّ كل مـن يفكِّـر خـارج المعادلـة القتاليَّـة العدميَّـة السـائدة.

الهزيمة؛ من الإنكار إلى التفسير، ومن ثمَّ التبرير

اتَّهـم النظـام السـوريُّ الثـورة السـوريّة فـي أسـبوعها الأول بثلاثـة اتِّهامـاتٍ: الأول أنَّهـا ذات توجهـاتٍ إسـلامويَّةٍ طائفيّـةٍ، والثانـي أنَّهـا عنيفـة ومسـلَّحة، والثالـث أنَّهـا مرتبطـة بالخـارج. فـي الحقيقـة نفَّـذ القسـم الأكبـر مـن المعارضـة/ ات هـذه الاتهامـات أو شـارك فـي تحويلهـا إلـى واقـع علـى الرغـم مـن أنَّ الثـورة فـي أشـهرها الأولـى كانـت بعيـدةً كليًّـا عـن هـذه الاتهامـات. لا يوجـد إخفـاقٌ أكبـر مـن تنفيـذ مـا يريـد خصمـك أن تنفِّـذه. هـؤلاء هـم أكثـر مـن ينكـرون هزيمتنـا اليـوم.

يمكننـا أن نقـول ببسـاطة إنَّ النظـام السـوريَّ هـو الـذي دفـع الثـورة والمعارضـة دفعًـا إلـى السـير فـي الخيـارات الثلاثـة السـابقة، وهـذا صحيـح بالطبـع بدرجـةٍ مـا كمـا أسـلفنا، لكـنَّ الاكتفـاء بهـذا التفسـير معيـبٌ مـن جانـب اعترافنـا بصـورةٍ غيـر مباشـرةٍ بـأنَّ النظـام قـد جرَّنـا إلـى حيـث يريـد، وأنَّنـا كنَّـا منفعليـن بمـا يحـدث، تاركيـن عقولنـا وراءنـا.

> ساد أيضًا نمطٌ من التفكير "الثوريِّ" المؤمن بحتميَّة انتصار الثورة، استنادًا إلى كونها ثورة مُحِقَّة، ولم يكن هناك أيُّ شكٍّ لدى القطاع الأوسع من السياسيِّين في انتصار الثورة؛ لو كانت "الأحقيَّات" هي التي تحكم الواقع والتاريخ أو تتحكَّم فيهما لكنَّا بألف خيرٍ

مـازال قسـمٌ مـن المعارضيـن والثوريِّيـن يُنكـر الهزيمـة، رافعًـا لـواء اسـتمراريَّة الثـورة. كان صعبًـا علـى هـؤلاء قبـول حقيقـة أنَّ التاريـخ قـد غيَّـر مجـراه، فبـدلًا مـن الإقـرار بالهزيمـة وخفـض سـقف التوقّعـات والتركيـز علـى الإنجـاز فـي المعـارك الصغيـرة تحضيـرًا لمسـتقبل آخـر بالاسـتفادة ممَّـا يسـمُّونه أحيانًـا «الأخطـاء السـابقة»، اسـتمرُّوا فـي إطـلاق الأمنيـات التـي تفتقـد إلـى أيِّ رصيـدٍ واقعـيٍّ.

بالطبـع، ليسـت الهزيمـة أمـرًا سـهلًا، ولا الإقـرار بهـا أيضًـا. نعـم، الخسـارة مؤلمـة وصعبـة الاحتمـال، لكـنَّ أسـوأ مـا يميِّـز هزيمتنـا اليـوم ليـس إنكارهـا، بـل تكـرار المهزوميـن لهذيـان الأنظمـة نفسـه عندمـا كانـت تبـرِّر هزائمهـا أمـام الأعـداء الخارجيّيـن، الهذيـان الـذي كنَّـا، ومـا زلنـا، نسـخر منـه؛ المؤامـرات التـي لا تنتهـي، خيانـة الـدول الصديقـة للثـورة، بيـع القضيـة السـوريَّة أو مقايضتهـا فـي السـوق السياسـيّة... إلـخ.

فـي سـياق تبريـر الهزيمـة يكثـر أيضًـا الحديـث عـن وجـود «ثـورة مضـادة» أنهكـت الثـورة الحقيقيَّـة، ونمـت علـى حسـابها، أو الحديـث عـن اختطـاف الثـورة أو السـطو عليهـا مـن تيـاراتٍ معيَّنـةٍ، والغريـب أنَّ مثـل هـذه التعابيـر تُسـتخدم مـن الجميـع ضـدَّ الجميـع فـي سـياقٍ تبريـريٍّ دفاعـيٍّ لا تحليلـيٍّ، لتـؤدِّي دورًا فـي مواسـاة أنفسـنا أو التخفيـف مـن إحساسـنا بالهزيمـة أو لتكـون بمنزلـة إعـلان بـراءة مـن واقـع الثـورة اليـوم. فـي مصـر مثـلًا، اسـتخدمت التيـارات والقـوى العلمانيَّـة هـذا التعبيـر فـي وجـه جماعـة الإخـوان المسـلمين التـي اسـتلمت الحكـم بعـد ثـورة 25 ينايـر، لتعـود الجماعـة وتسـتخدم التعبيـر ذاتـه ضـدَّ نظـام السيسـي. وفـي سـورية ظهـر تعبيـر «الثـورة المضـادَّة» بعـد اتِّضـاح هزيمتهـا أو علـى الأقـل بعـد عجـز الثـورة عـن إسـقاط النظـام، واسـتُخدم فـي وجـه الجماعـات الإسـلاميّة والفصائـل المسـلّحة مـع أنَّ الكتلـة الأوسـع مـن الثـورة كانـت قـد أيَّـدت «المجلـس الوطنـيّ السـوريّ» وفصائلـه المسـلَّحة أو التحقـت بهمـا فـي وقـتٍ لاحـقٍ، مـا يعنـي فـي الحقيقـة أنَّ «الثـورة المضـادة» كانـت قابعـةً أصـلًا فـي رحـم الثـورة أو علـى الأقـل ينبغـي لنـا الاعتـراف بـأنَّ «الثـورة المضـادة» قـد انبثقـت انبثاقًـا عضويًّـا مـن الثـورة الأصـل، ولـم تكـن غريبـةً عنهـا كليًّـا. جـذر المشـكلة هنـا هـو تأخُّـر ثقافـة المعارضـة/ ات والنخـب السياسـيَّة الثقافيَّـة والمجتمـع.

يـرى بعضهـم أنَّ الثـورة لـم تُهـزم، وأنَّ الـذي هُـزم هـو المعارضـة/ ات والجماعـات والفصائـل الملحقـة بهـا. إذا كان الحديـث يـدور عـن الثـورة بتطلعاتهـا وأهدافهـا خـلال أشـهرها الأولـى، فهـذه لـم يبـقَ منهـا إلَّا بعـض الجـزر المحـدودة داخـل البلـد وخارجـه، وهـي مـا زالـت مشـتَّتة بطريقـة لا تسـمح بإيجـاد ناظـمٍ أو مركـزٍ لهـا، ومـن ثـمَّ ليسـت لهـا فاعليَّـة حقيقيَّـة فـي مسـار الواقـع الراهـن، علـى الرغـم مـن كونهـا إحـدى النقـاط المضيئـة فـي ظـلِّ هـذه الظلمـة الحالكـة. لكنَّهـا تلفـت انتباهنـا إلـى مسـألة مهمّـة؛ مـا دامـت الثـورات لا تمـوت بالسـكتة القلبيَّـة، خصوصًـا إذا كانـت

عميقة ومؤثِّرة وقويَّة بمعطياتها الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة، فإنَّ الأنظمة الحاكمة هي أيضًا كذلك. هذا يعني أنَّ الرؤى الراديكاليَّة التي بالغت في موقفها تجاه النظام السوريِّ، فطالبت بإسقاط كيانه وأركانه ورموزه وكلِّ ما يمتُّ إليه بصلة، هي رؤى خرافيَّة تخدم في «المزاودة» لا في السياسة. وعي هذه النقطة كان يمكن أن يكون مفيدًا في إنتاج خطابٍ سياسيٍّ عاقلٍ، وفي بناء تصوّرٍ يُعتدُّ به لأيِّ مرحلةٍ انتقاليَّةٍ مقبلةٍ.

أما إذا كان الحديث مركّزًا على «الثورة» التي أصبحت طرفًا في صراع عسكريٍّ، محليٍّ وإقليميٍّ ودوليٍّ، رغمًا عن أنف أهلها وبدفع من بعض أطرافها في آنٍ معًا، فهذه لا يمكن فصلها عن «المعارضة/ ات» السائدة، لا على مستوى الوعي، ولا على مستوى التنظيم والتمثيل والأداء، ومن ثمَّ فإنَّ التمييز بين هذه «الثورة» و«المعارضة/ ات» السائدة ليس أكثر من محاولةٍ رغبويَّة لا قيمة لها لتبرئة مصطلح «الثورة» ذاته من الدنس والإخفاق.

يدخل أيضًا في سياق الخطاب التبريريّ الدفاعيّ غير المفيد القول «إن سورية قد تغيَّرت، ولن يستطيع النظام إعادة سورية إلى ما قبل 2011» أو «إن الثورة السوريّة كسرت حاجز الخوف». وهذا صحيح أيضًا، لكنَّه لا يعطي كلَّ الحقيقة، فالواقع مفتوحٌ على احتمالاتٍ متعدِّدة؛ سورية حتى الآن أسوأ ممّا كانت عليه قبل 2011، وقد تصبح أكثر سوءًا في المستقبل القريب أو أفضل في المستقبل البعيد. أما الخوف الذي تكسَّر فقد ظهرت بدلًا منه أنماطٌ جديدةٌ من الخوف: خوف من حكومات الدول الأخرى، خوف من الجماعات الإسلاميّة المتطرِّفة، خوف من الفصائل المسلّحة، فضلًا عن اشتداد مخاوف قديمة وجدت تربتها الملائمة؛ الخوف ممن ينصِّبون أنفسهم أوصياء على الدين، الخوف من تطييف المجتمع السوريّ، المخاوف المتبادلة بين الجماعات القوميّة المتعددة في سورية... إلخ.

أما تعبير «الدروس المستفادة من تجربة الثورة»، فعلى الرغم من صحَّته وأهميَّته، فإنَّه يظلُّ مرهونًا بطبيعة العقل الذي يعيد قراءة التجربة بقصد الاستفادة منها والمشاركة في إنتاج مستقبلٍ آخر، فلا أمل في عقلٍ لم يُراجع أوليَّاته ومسلَّماته مراجعةً نقديّةً أو لم يتحرَّر من سطوة الأيديولوجيا أو الانتماء الطائفيِّ أو القوميِّ الضيِّق أو من القابليّة للاستزلام أو التبعيَّة. هناك «أخطاء» أيضًا كانت واضحةً منذ البدايات، وقد غابت عن أصحابها إما بسبب عدم الخبرة أو اللاعقلانيَّة السياسيَّة أو ربَّما بسبب الانتهازيَّة السياسيَّة أو الخفة السياسيَّة والحسابات قصيرة النفس، ما يتطلَّب الاعتذار وإخلاء الساحة في الحدِّ الأدنى، فهؤلاء مؤهَّلون لإعادة إنتاج الهزيمة لا تجاوزها.

ما بعد الهزيمة

يتفاعـل البشـر مـع هزائمهـم بصـور وطرائـق متنوعـة، تبعًـا لمسـتوى وعيهـم وانتماءاتهـم ومواقعهـم وخسـاراتهم. يصـل بعـض أصحـاب التجـارب أو الثـورات المهزومـة إلـى التبـرؤ منهـا أو إنكارهـا أو السـخرية مـن شـعاراتها وأهدافهـا، الديمقراطيّـة والعدالـة الاجتماعيّـة... إلـخ، أو إلـى شـقٍّ طريـقٍ أخـرى تُعلـي مـن شـأن الاهتمـام بالمصلحـة الشـخصيَّة وحسـب والتنكّـر لجماعيَّـة الحيـاة، فيمـا يبقـى بعضهم الآخـر مسـتغرقًا فـي الماضـي يتغنَّـى باللحظـات الأولـى البريئـة للثـورة، ويسـتذكرها بشـيءٍ مـن الفخـر أو الحنيـن أو الألـم، أمـا غيرهـم فينكـرون الهزيمـة ذاتهـا أصـلًا، ويسـتمرّون فـي رسـم صـورةٍ مغايـرةٍ لواقـع الثـورة، تتوافـق مـع انتماءاتهـم أو أمنياتهـم أو مصالحهـم، محاوليـن بطرائـق عديـدة إقنـاع المتقاعسـين أو المتردِّديـن بالاسـتمرار فـي نضالاتهـم وأعمالهـم اسـتنادًا إلـى الأهـداف ذاتهـا وباسـتخدام الآليَّـات نفسـها ومـن خـلال طـرق الأبـواب عينهـا.

لا شـكَّ فـي أنَّ الإحسـاس الكبيـر والعميـق بالظلـم قـد يمنـع أيَّ مقاربـةٍ عقلانيّـةٍ وهادئـةٍ للواقـع والثـورة، خاصـةً مـع الأوصـاف التـي رسـخت فـي الوعـي العـامِّ للثورة السـوريَّة؛ ثـورة يتيمـة، ثـورة مغـدورة، الثـورة التـي تآمـر عليهـا الجميـع، الثـورة ذات التكاليـف الهائلـة بشـريًّا وماديًّـا... إلـخ. إنَّ الثـورة المهزومـة، فضـلًا عـن هزيمتهـا، سـتتعرَّض إلـى ظلـمٍ كبيـرٍ يتمثـل إمـا بتنكُّـر بعـضٍ أهلهـا لهـا وإعـلان براءتهـم منهـا أو بلعنهـا مـن الأغلبيَّـة وإلحـاق كـوارث الواقـع كلِّهـا بهـا. هـذا أمـرٌ طبيعـيٌّ، وحـدث كثيـرًا عبـر التاريـخ، ولـن تحصـل الثـورة المهزومـة علـى الإنصـاف إلَّا عندمـا تتحقَّـق أهدافهـا أو تنجـح فـي مـا سـعت لـه، ولـو بعـد زمـنٍ طويـلٍ.

هنـاك قيـاداتٌ كثيـرةٌ، فـي ثـوراتٍ عديـدةٍ عبـر التاريـخ، لـم يُحتفَ بهـا إلَّا بعـد أن أُعيـدت كتابـة التاريـخ فـي ظـلِّ واقـعٍ آخـر، وبعضهـا اتُّهـم بالجنـون فـي أثنـاء حياتـه إن لـم يُقتـل أو يُعتقـل أو يُنفـى، وهنـاكَ هزائـم قـد تتحـوَّل لاحقًـا إلـى انتصـاراتٍ فيمـا لـو أُحسـن الاسـتفادة منهـا. فعلـى الرغـم مـن أنَّ معركـة ميسـلون لـم تنجـح فـي منـع الفرنسـيّين مـن احتـلال سـورية فإنَّـه لا يمكـن إنـكار دورهـا فـي تأسـيس الوطنيَّـة السـوريَّة بعـد انهيـار الدولـة العثمانيَّـة. وهـذا يجعلنـا نؤكِّـد علـى أنَّ كلَّ هزيمـةٍ هـي هزيمـةٌ موقّتـةٌ إذا عـرف أهلهـا كيـف يتجاوزونهـا ويسـتفيدون منهـا فـي بناء المسـتقبل.

علـى الرغـم مـن غرقنـا فـي الهزيمـة، ينبغـي علينـا ألَّا نتنكَّـر لأحلامنـا، وألَّا نخجـل مـن الاسـتمرار فـي العمـل مـن أجـل الأهـداف الكبـرى، لكـن فـي المقابـل، ينبغـي لذكرياتنـا عـن الثـورة السـوريّة ألَّا تمنعنـا مـن رؤيـة الواقـع أو الراهـن كـي لا نصبـح خارجـه أو علـى هوامشـه، ولنكـون فاعليـن ومؤثِّريـن فـي مسـاراته. هـذا يعنـي أنَّ التجـاوز مختلـفٌ عـن النسـيان؛ لا ينبغـي لنـا أن ننسـى أو نتناسـى الأمانـي والتطلُّعـات والآلام بـل أن نسـتمرَّ فـي العمـل مـن أجلهـا، مـع إدراكنـا عيـوب التجربـة السـابقة وعثراتهـا وأوهامهـا وسـذاجتها وتناقضاتهـا ورعونتهـا.

نحتاج حقًا إلى ثورة في الثورة؛ بلورة ثورة ديمقراطيَّة من أحشاء التجربة السابقة. إنَّ أيَّ عملية بناء سورية مستقبليَّة لن تبدأ من الصفر، فالخبرات الكثيرة المتراكمة لدى قطاعاتٍ شعبيَّةٍ وسياسيَّةٍ عديدةٍ خلال المرحلة الماضية يمكن أن يكون لها دورها المهمُّ في إبداع مسارات جديدة. قد يكون فهم الماضي مدخلًا لفهم الحاضر، وبالتالي خطوةً من أجل النظر إلى المستقبل، لكنَّ طبيعة الوعي الذي يحمله المرء تبقى هي التي تحدِّد ما إذا كان سيستفيد من التجربة أم لا، فهناك من يكرِّرون الأخطاء إلى ما لا نهاية.

> ينبغي لنا الاعتراف بأنَّ "الثورة المضادة" قد انبثقت انبثاقًا عضويًّا من الثورة الأصل، ولم تكن غريبةً عنها كليًّا

تحتاج المواجهة الفاعلة للهزيمة، أيِّ هزيمةٍ، أولًا وقبل أيِّ شيءٍ، إلى الإقرار بها. الاعتراف بالهزيمة هو أوَّلُ خطوةٍ باتجاه تخطِّيها، وهذا لا يعني النطق باعترافنا وحسب كما يتصوَّر بعضهم، بل يعني رمي أنماط تفكيرنا وأدائنا وطرائق عملنا التي أوصلتنا إلى الهزيمة وراءنا. يسألونك ما الحلّ؟ الحلّ يبدأ بالتفكير بطريقةٍ أخرى. تخيَّل أنك رميت من ذهنك أنماط التفكير والخطاب واللغة والمفردات والآليات والممارسات التي سادت طوال ما يزيد على اثني عشر عامًا، ثم ابدأ التفكير انطلاقًا من صفحة بيضاء؛ فكلُّ هزيمة تتعرَّض لها جماعة بشريَّة تعني أنَّ ثمَّة تفكيرًا زائفًا وغير عقلانيٍّ يقبع خلفها، وأنَّ تخطِّيها مشروطٌ بنقد هذا التفكير وإنتاج رؤىً ومقارباتٍ بديلةٍ. كان واضحًا طوال السنوات الماضية مثلًا أنَّ معايير الهزيمة والانتصار بالنسبة إلى النظام والمعارضة السائدة هي واحدة لأنَّ هناك ثقافة سياسيّة واحدة تجمعهما في الحصيلة.

لا بدّ من مرحلة صمتٍ أو تأمّلٍ بعد الهزيمة، مرحلة مراجعة الذات، لأنَّ الإمعان في الصراخ يزيد الهزيمة تكريسًا والمسار انحدارًا. كثرة الصراخ في مناخ الهزيمة تشبه ذلك الخائف الذي يسير ليلًا ويسلِّي نفسه بصوته. نحتاج، بعد ذلك، إلى اختيار التكتيكات الملائمة وساحات العمل المنتجة حتى لو كانت صغيرةً أو محدودةً، ليس بقصد التخلِّي عن الثورة الأصل وأهدافها، إنما بهدف الاستعداد لمرحلة كفاحيَّة جديدة، بطيئة وصبورة. في مراحل الركود والتراجع علينا أن نتقن العمل بهدوءٍ وانتظامٍ وثباتٍ، وأن نتقدَّم على أرضٍ صلبةٍ، خطوةً بعد خطوةٍ.

صحيحٌ، كما أسلفنا، أنَّ هناك أسبابًا عديدة لإخفاقنا، وبعضها أكبر من طاقة السوريّين أو فوق قدرتهم على التحكُّم فيها، لكن دائمًا وأبدًا كانت، وستكون، هناك أسباب تتحمَّل مسؤوليّتها الذات، والحديث عن إخفاق الذات وكيفية

تجاوز مشكلاتها هو الحديث الوحيد المفيد في الحالة السوريّة الراهنة. الطبيب الجيِّد هو الذي يضع مسؤوليّة أيِّ إخفاقٍ على نفسه، على عقله وأدائه أولًا، لا على المريض أو المرض. من حيث المبدأ كلُّ المرضى قابلون للشفاء، وكلُّ الأمراض قابلة للمعالجة، وأيُّ إخفاقٍ هو مسؤوليَّة الطبيب. هذه الرؤية تدفع الطبيب ليبحث ويتعلَّم ويحاول ويغيِّر من مقارباته وأساليبه لعلَّه ينجح مستقبلًا في ما أخفق فيه، وأيُّ رؤيةٍ غيرها لن تكون سوى محاولة رديئة للتنصّل من المسؤوليَّة. ما يصلح في الطب يصلح في الحياة، وفي السياسة أيضًا.

> "كلُّ هزيمة تتعرِّض لها جماعة بشريَّة تعني أنَّ ثمَّة تفكيرًا زائفًا وغير عقلانيٍّ يقبع خلفها، وأنَّ تخطِّيها مشروطٌ بنقد هذا التفكير وإنتاج رؤىً ومقارباتٍ بديلةٍ"

المشاركون في هذا العدد

الزهراء سهيل الطشم
أمل حويجة
أمل فارس
بينت شيلر
جبر الشوفي
جمال الشوفي
حازم نهار
راتب شعبو
رياض زهر الدين

ريمون المعلولي
سامر إسماعيل
سائد شاهين
سعيد بوعيطة
سلوى زكزك
سميح شقير
شوكت غرز الدين
شيرين عبد العزيز
عبد الرحيم الحسناوي

عبد الرزاق دحنون
عبد الله أمين الحلاق
عمّار الأمير
محمد عمر كرداس
مضر رياض الدبس
مهران الشامي
نور الهدى مراد
هدى سليم المحيثاوي
ورد العيسى

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

السعر 15 دولارًا
2757-8909